الفصل الثاني

موقف الإسلام كدين من العقل ومحاولة لتحرير العقل العربي

يقول الكاتب نبيل علقم في مقالته عن التجديد الإسلامي: إن القرآن الكريم ألحَّ على تحرير العقل من الأساطير والخرافات، وكل أشكال اللا معقول الأخرى التي كانت أبرز معالم الثقافة العربية، وغيرها من الثقافات قبل الإسلام. وحينما تكون ثقافة ما محكومة لمظاهر اللا معقول فإنه يلزم عنها فساد النظم الثقافية جميعًا: النظام العقدي، والاجتماعي، والاقتصادي والسياسي.

وكانت دعوة القرآن الكريم إلى تحرير العقل من اللامعقول سيظل كأي مجتمع «ينتج الخطابات، التي يحتاجها والتي تعبر عن بنية «اللامعقول». فإن كل أشكال الخطاب ستظل تصدر عن اللامعقول الديني أو السياسي أو الاجتماعي أو الاقتصادي.

ولذا جاء القرآن الكريم ليصبح البنية الثقافية والاجتماعية معًا؛ انطلاقًا من تصحيح العقيدة، فإذا صحت العقيدة صحت بقية النظم، وصح معها المجتمع، وصحت ثقافة المجتمع تبعًا لذلك. وليس غريبًا إذن أن معظم آيات القرآن الكريم وردت لتصحيح العقيدة، فهناك إحصائية مهمة أود أن أذكرها هنا، وهي أن آيات القرآن الكريم (٦٢٣٦) آية كلها في العقيدة عدا أقل من ٦٠٠ آية في الأحكام الشرعية، وهذا ما دعا الفيلسوف ابن رشد إلى القول بأن القرآن الكريم إنما هو دعوة إلى النظر والاعتبار، وتنبيه على طرق النظر والاعتبار وتنبيه على طرق النظر. وجاء إصدار القرآن الكريم على استعمال العقل بصيغ شتى كالدعوة إلى التعقل والتفقه والتفكر والتبصر والتذكر، كما دعا إلى المعرفة والعلم، وخاطب القرآن أصحاب النهي وأولي الألباب وأولي الأبصار، في دعوة صريحة إلى إطلاق العقل للوصول إلى اليقين فيتغير المجتمع، وتتغير الثقافة من ثقافة اللامعقول إلى ثقافة المعقول.

وإذا تأملنا؟ آيات «التعقل» فى القرآن الكريم لوجدنا أنها وردت فى تسع وأربعين آية كلها بالصيغ الفعلية، وهى الصيغ التالية: عقلوه، تعقل، تعقلون، يعقلون، يعقلها، ولهذه الآيات دلالات متعددة منها:

١ ـ أنها وردت جميعًا بصيغة الفعل، ويفيدنا ذلك فى أن العقل ليس جوهرًا أو عرضًا قائمًا بذاته كما يقول القدماء، وأنه ليس مادة محسوسة يمكن وصفها. بل إن «التعقل» عملية فعلية، وليس حالة ثابتة، والفعل يتجدد بينما الاسم يدل على الثبات، وإذن فليس هناك عقل ثابت وإنما هناك فعل «التعقل» المتجدد، وإن غياب «التعقل» يؤدى إلى الفساد العقدى وغيره من النظم الثقافية.

٢ ـ وردت آيات «التعقل» كلها بصيغة الجمع عدا آية واحدة، وهذه الصيغ هى: عقلوه، يعقل، يعقلون، تعقلون، والآية الوحيدة التى وردت بصيغة المفرد هى «يعقلها» جاء الفاعل فيها بصيغة الجمع «وما يعقلها إلا العالمون»، ودلالة ذلك أن القرآن الكريم يوضح لنا بصورة قاطعة أن المطلوب التعقل الجمعى؛ ففى أى مجتمع؛ وفى أية ثقافة هناك أفراد يعقلون ويتعقلون لكن ذلك ليس كافيًا لتغيير المجتمع أو الثقافة لتكون ثقافة «عقل» و«تعقل»، وبمعنى آخر ثقافة عقلانية؛ إنما المطلوب أن أغلب أفراد المجتمع لتتغير النظم إلى نظم إسلامية؛ وتتحول الثقافة إلى ثقافة إسلامية. أى أن التعقل مطلوب إسلاميًا على المستوى الجمعى لا على مستوى الأفراد فقط.

٣ ـ تشمل آيات التعقل عدد كبيرًا من الموضوعات منها: تأكيد وجود الله؛ وتأكيد وحدانيته؛ والخلق والبعث وسائر الغيبيات؛ كما تشمل كل ماهو فينا وحولنا؛ قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت: ٥٣] وبين طرق الاستدلال العقلى ما استخدم بكثرة فى آيات القرآن الكريم، كالتشبية وإيراد القصص والأمثال والمناظرة وغيرها. وقد استخدم القرآن مرادفات كثيرة للتعقل؛ فعلى سبيل المثال استعمل مشتقات العقل «فقه» فى عشرين آية كلها بالصيغة الفعلية؛ وبصيغة الجمع ودلالات التفقه كما وردت فى القرآن الكريم هى كدلالات التعقل. فالمطلوب ليس فقه للأفراد فقط؛ ولكن مطلوب أيضًا من بعض المسلمين أن يتفقهوا فى الدين أى أن يستثمروا استعدادهم العقلى لزيادة معرفتهم فى آيات الله فى الآفاق وفى النفس البشرية؛ قال تعالى فى آية واحدة من آيات التفقه العشرين: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: ١٢٢]. واستعمل القرآن الكريم مشتقات العقل «فكر» فى ١٨ آية كلها بالصيغ الفعلية، وبصيغ الجمع عدا واحدة. ولها الدلالات ذاتها

فى أن الفكر يتغيرتبعًا لتغير فعل «التفكير»؛ وإن «التفكر «و التفكير» يجب أن يكونا فعلًا جميعًا بمعنى طريقة التفكير، والأفكار قد تكون مقبولة إسلاميًّا على مستوى الأفراد؛ لكن ذلك لايجعل التفكير والفكر إسلاميًا إلا إذا قام أغلب أعضاء الجماعة الإسلامية بدورهم فى التفكير. وهناك صيغ أخرى استعملها القرآن الكريم كالتدبر والتنكر والتبصر وأولى الألباب وأولى النهى للحض على التفكير وعلى التعقل أو استعمال العقل للوصول إلى الحقائق اليقينة المتعلقة بالله وبالخلق وبالمخلوقات؛ أو الوصول بالعقل إلى تطهير الثقافة وتحريرها من كل اللامعقولات التى تتحكم فى حياة الإنسان ومصيره. والعقل فى القرآن الكريم ومن خلال الآيات الواردة فيها يعنى العلم والمعرفة والفهم؛ ويعنى أيضًا التمييز بين الخير والشر؛ كما يقول د. صلاح الدين المنجد؛ فوظيفته إذن استكشاف المجهول وفهمه، وتسخيره لخدمة الإنسان الذى يقع عليه حمل رسالة إعمار الأرض التى كلفه الله بها.

إشكالية العقل فى التراث الإسلامى

بلغ التعقل؛ و«العقلانية» ذروتها فى أثناء الدعوة الإسلامية، بخاصة وفى صدر الإسلام على وجه العموم، ويتمثل هذا التعقل وهذه العقلانية فى سرعة التحول الاجتماعى من اللامعقول الدينى بخرافاته وأساطيره إلى المعقول الإسلامى فى عبادة الله وحده وما يرتبط بذلك من أسس لبناء النظم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، ولكن ذلك لم يدم طويلًا؛ فقد دخل الإسلام كما أوضحنا من قبل فى صراع مع الثقافات السابقة له سواء الثقافة العربية، أو الفارسية، أو اليونانية، والهلينية؛ كما دخل فى صراع مع الأديان الأخرى من بوذية، وزرادشتية ويهودية، ومسيحية، وصابئة، ومجوسية، وسواها. وكان العقل نفسه أحد موضوعات الصراع؛ فى وجود السؤال الدائم: ما هو العقل؟ وما حدوده وإمكاناته؟ وما دوره فى الوصول إلى الحقائق؟ وتعرض العقل فى خصم هذا الصراع بين مختلف الثقافات والتيارات إلى التطرف فى تمجيده أو قمعه وإلى الصراع حول إمكاناته وقدراته، وفى تنحيته أو الاحتفاء به؛ وإذا اختصرنا تاريخ البحث فيما تعرض له العقل من قمع واحتفاء، فإننا نتبنى فى الخطوط العريضة لا فى التفصيل والجزيئات ما توصل إليه د. محمد عابد الجابرى فى ثلاثية نقد العقل العربى إلى نتائج الصراع تمثلت فى تشييد ثلاثة نظم معرفية فى الثقافة العربية؛ يؤسس كل منها آلية خاصة فى إنتاج المعرفة مع ما يرتبط بها من مفاهيم وينتج عنها من رؤى. وكل من هذه النظم يتعامل مع العقل بصورة مختلفة عن النظامين الآخرين. وهذه النظم المعرفية هى: البيان والعرفان والبرهان. ويعرف الدكتور الجابرى البيان بأنه: «النظام الذى أنتجه علماء البيان من لغويين، وعلماء نحو، وبلاغيين، وعلماء أصول الفقه، وعلماء الكلام؛ سواء أكانوا معتزلة أم أشاعرة أم حنابلة؛ ومن

الظاهرية أو من السلفية قدماء ومحدثين. إن هولاء جميعًا ينتمون إلى حقل معرفى واحد يؤسسه نظام معرفى واحد هو النظام المعرفى البيانى». وفى نقده لهذا الحقل المعرفى يعتقد الجابرى أن البيانيين «جعلوا من وسائل التنبيه التى يستعملها القرآن؛ قواعد للاستدلال ومنطلقًا للفكر، ولكن لا باتخاذ النص القرآنى سلطة رجعية وحيدة؛ بل بقراءته بواسطة سلطة مرجعية أخرى وهى عالم الأعرابى: عالمه الطبيعى والفكرى الذى تحمله اللغة العربية التى جعلوا منها مرجعية حكما بدعوى أنها اللغة التى نزل بها القرآن.

صحيح أن القرآن نزل بلغة العرب؛ عرب الجاهلية؛ ولكن السؤال الذى يجب التقرير فيه بصددطريقة فهم القرآن هو التالى: هل تنزل القرآن بلغة العرب ليبقى مضمونه سجين العالم الذى تحمله هذه اللغة معها: عالم الأعرابى؟ أم أنه بالعكس من ذلك نزل بلغة العرب ليتجاوز بهم عالم جاهليتهم إلى عالم آخر ليخرجهم (من الظلمات إلى النور). أما العرفان كما يراه الدكتور الجابرى، فهو نظام معرفى مشيد على نظام من المعرفة فوق المعرفة العقلية وأسمى منها، وهى المعرفة الباطنية؛ ليس بأمور الدين وحسب بل بكل ما هو سحرى وخفى كالسحر والتنجيم والكيمياء. والعرفان أو مايسمى باللغة العربية الفصحى «الفنوحى» سابقة للإسلام ولكنه نتيجة للصراع الثقافى استطاع أن يشيد له موقعًا فى الثقافة العربية. وهو كما يقول الجابرى: يضمن ألفاظ القرآن أفكارًا مستقاة من الموروث العرفانى. أما البرهان؛ فهو معروف وهو طريق المفكرين والعلماء والفلاسفة، وقد سلكوا طريق البرهان جميعًا لإثبات حقائقهم الافتراضية لجعلها حقيقية.

وعمومًا فإن تأثير جميع النظم المعرفية يبدو واضحًا فى الثقافة العربية حتى الآن؛ فالبيان والعرفان والبرهان ظلت نظمًا متداخلة متشابكة فى الثقافة العربية على مر العصور. أما التاريخ الثقافى العربى السائد فهو: «مجرد اجترار وتكرار وإعادة إنتاج بشكل ردىء للتاريخ الثقافى الذى كتبه أجدادنا تحت ضغط صراعات العصور؛ ومازلنا سجناء للرؤى والمفاهيم التى وجهتهم؛ والتى فى الوقت ذاته تجرنا دون أن نشعر إلى الانخراط فى أجزائها وفى كليتها على أن يكون القرآن الكريم المرجع الأول لهذه القراءة الجديدة، وأن تكون السنة النبوية المرجع الثانى؛ وأن نوظف ما يمكن توظيفه بعد ذلك من فكر موروث فى إعادة بناء الثقافة العربية لتكون ثقافة إسلامية عالمية على أسس عقلانية ولكن؛ حتى نتمكن من ذلك علينا أن نحرر العقل ذاته من إشكالية صراع العصور؛ فالعقل أهمل إهمالًا حادًا، ويكاد يكون تامًا من قبل أهل العرفان والباطن؛ ومجد تمجيدًا؛ وحمل حملًا فوق ما يمكن أن يتحمله فا نحرف العقل بذلك عن إمكاناته، وكما أراد الله له؛ من وظائف على مستوى الأفراد أو على مستوى العقل

الجمعى، وذلك لدى أصحاب البرهان أو بعضهم الذين نحوا منحى الفلسفة اليونانية المختلفة فى جذورها عن الثقافة العربية بعامة وعن الإسلام بخاصة، ووقف أصحاب البيان مترددين فى منح العقل الأهمية التى أولاها إياه القرآن الكريم؛ أو إهماله أحيانًا؛ حتى أن ثانى مصدر أو مرجع إسلامى بعد القرآن الكريم وهو صحيح البخارى يخلو خلوًا تامًا من أحاديث العقل. ويعرض الدكتور صلاح الدين المنجد لهذه المسألة فيقول: «إن المعتزلة تغالوا فى تحكم العقل فتغالى كثير من الرواة فى رد كل ما ورد فى فضل العقل نكاية فيهم. هكذا فقد ظلم العقل فى العصور التالية لعصر الدعوة الإسلامية بسبب صراع الثقافات والفلسفات والأديان؛ وجاء ظلمه بالانحراف به كما أراده الله له من جهتين؛ فى جهة انحرف من قبل الفلسفات التى دعت إلى تمجيده ورفعه إلى مستوى يفوق تكريم الإنسان نفسه؛ ونعرف أن الله لم يأمر أحدًا بالسجود لغيره عدا سجود الملائكة لآدم رمز التكريم للإنسان لا يعقله فقط؛ ومن جهة أخرى جاء ظلمه من الذين أدنوا منزلته إلى درجة إهماله كليا سواء من الباطنيين والمتصوفة وأهل العرفان الذين يقولون إن الله لا يعرف بالعقل وإنما بالباطن والإيحاء؛ أو من أهل البيان الذين رفضوا كل أحاديث العقل فى موقف ظالم له ردًا على ظلم المعتزلة والفلاسفة؛ فتماثلوا فى ذلك مع أهل العرفان والباطن. ولكن ظل كثير من العلماء يعطون العقل منزلته التى دعا إليها القرآن الكريم، بل يقول الكثيرون بأن الاعتقاد التقليدى غير مقبول؛ وقد يسمح بالتقليد فى الأحكام والشرائع أما فى العقائد فلابد للمسلم أن يجتاز مرحلة الشك ودائرة الريبة ويعتقد بالدليل والبرهان؛ ولا يتم ذلك إلا بالعقل وحده.

ويمكن أن نلخص مفهومنا للعقل بأنه قوة مدركة؛ أو آلة للتميز أوحاسة دالة على الشىء أو القضية موضوع التعقل؛ وقد عرف الشيخ نديم الجسر «التعقل» بأنه يعتمد على بديهيات أولية يأخذ العقل فى تركيبها واستنباط بعضها من بعض؛ وبناء بعضها على بعض؛ فيصل إلى حكم عقلى قاطع، ويدل ذلك على أن التعقل يصل إلى غايته وهى الوصول إلى الأحكام القطعية بشروط منها: صحة البديهيات الأولية؛ وهى قد تختلف من فرد إلى فرد فى الجماعة الثقافية، وهى قد تختلف من جماعة ثقافية إلى أخرى، ومن هذه الشروط أيضًا صحة التركيب وصحة الاستنباط لتكون النتائج يقينية؛ أى أنه يجب أن تكون كل المقدمات صحيحة ويقينية حتى تكون النتائج يقينية. والتعقل هو فحص هذه المقدمات انتهاء إلى الوصول إلى اليقين. وقبل أن نتحدث عن كيفية تحرير العقل ليصل إلى اليقين ليمارس دوره المطلوب منه؛ وسوف نتحدث أولًا عن موانع تحرير العقل أو مم يتحرر العقل؟

*** موانع تحرير العقل: (مم يتحرر العقل؟)**

العلاقة بين العقل والثقافة هى علاقة مزدوجة، ومتفاعلة؛ بمعنى أن الواحد يؤثر فى

الآخر ويتأثر به. فالعقل يعمل من داخل الثقافة؛ فالثقافة اللاعقلانية تؤدى بالعقل الجمعى أو أغلب عقول الأفراد إلى أن تكون عقولا (لا عقلانية) بمعنى أنها لاتقوم «بالتعقل» كما يفترض أن تقوم به؛ وقد أوضحنا من قبل بعض مظاهر انتشار ظاهرة السحر التى حاربها الإسلام بشدة، وهى ليست إلا جزءًا من اللاعقلانية الثقافية المعيقة للنهوض الإسلامى. قال تعالى: ﴿سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ﴾ [الأعراف: ١١٦] ووصفه الله بأنه كيد حيث قال سبحانه: ﴿وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ ٦٩﴾ [طه: ٦٩]، وقال سبحانه: ﴿وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾ [يونس: ٧٧].

إذن فالسحر في القرآن الكريم هو تلاعب بالحواس وبالكلام؛ وهو كيد لا يفلح صاحبه؛ وماذا يفعل السحرة اليوم غير التلاعب بالحواس والكلام؟ وهو بذلك يعطل دور العقل فى البحث عن الأسباب؛ فمنطق السحر هو منطق رد الأسباب إلى قوى خفية (الجن والعفاريت). والقرآن الكريم يريد أن يستعمل العقل للبحث عن أسباب الظواهر، والسنن الكونية وتفسيرها ليس بالتفسير الأسطورى كما يفعل السحرة. وكما حرم القرآن السحر تحريمًا قاطعًا؛ أيضًا؛ قال ﷺ: «لا يدخل الجنة مدمن خمر ولامؤمن بسحر ولا قاطع رحم». هذا المجتمع الذى يدعو الإسلام إلى بنائه مجتمع المحبة وصلة الرحم ومجتمع العقلانية؛ فحتى معاقرة الخمر التى تفسد العقل محرمة كا لسحر الذى يفسد العقل سواء بسواء؛ وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الرقى والتمائم والتولة شرك؛ قالوا يا أبا عبد الرحمن هذه الرقى والتمائم قد عرفناها فما التولة؟ قال شىء تضعه النساء يتحببن به إلى أزواجهن وهو لون من ألوان السحر». وحارب الإسلام أشكال اللا معقول الأخرى فقال ﷺ: «لاعدوى ولاطيرة ولاهامة ولاصفر». وقال أيضًا «من أتى عرافًا أو كاهنًا فصدقه بما يقول فقد برئ مما نزل على محمد» وليس من ذلك دلالة على محاربة اللامعقول كله. إن موروثنا الثقافى فى جانبيه الشفهى أو المدون تكاد تغلب عليه المعتقدات والأساطير القادرة على الاستمرار والتوالد بإعادة إنتاج المثيل؛ وهذا الموروث قادرعلى استعمال الوسائل المعاصرة للإعلام من صحافة وتليفزيون وكتب وإنترنت. فهى جميعًا تفتح أبوابها للامعقول وتغذية بقصد أو بغير بقصد؛ ومن الأمثلة التى نشاهدها يوميًا فى الإعلانات والصحف والمجلات والإذاعة والتليفزيون عن قدرات وخوارق وأخبار قارئى الكف والحظ وحلّالى العقد المرضية، وغيرها من العقد الحياتية؛ إلا دليلًا على هذه المعتقدات والأساطير؛ يعنى ذلك ببساطة أن المعقول الإسلامى محاصر وأنه لايمكن التحرر من الحصار إلا بالعقل.

لقد دعانا الله سبحانه وتعالى إلى فك الحصار عن العقل فقال أصدق القائلين واصفًا حالة العرب وحالة الكفار الذين وقفوا في وجه الدعوة وواصفًا حالة العرب وغير العرب في كل الأزمنة وداعيًا إلى التحرر من هذه الحالة: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة:١٧٠] وقال سبحانه: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾[الحشر:١٤]، فالآية الأولى تدعونا ـ كما دعت من قبلنا ـ إلى التحرر من اللامعقول حتى لو كان آباؤنا عليه، وتصفنا الآية الأخرى ـ كما وصفت من قبلنا ـ فالعرب والمسلمون يبلغون تعدادًا ربع سكان الكرة الأرضية ولكن قلوبهم شتى؛ ولذا لم يوصف الواحد منهم بأنه لا يعقل، بل وصفوا بأنهم قوم لا يعقلون.

وإذا ما عرضنا واقعنا العربي ـ الإسلامي على هاتين الآيتين، سنجد أنفسنا في حال أولئك القوم، فنحن قوم قلوبنا شتى لأننا لا نعقل وبصورة أخرى فإن «المعقول الإسلامي» قد تحول في كثير من أساسياته إلى «اللامعقول الثقافي»، ولن نتحرر منه إلا «بالعقل» من أجل إعادة بناء الثقافة الإسلامية العقلانية.

وفيما لو قارنا بين الثقافة الإسلامية العقلانية حينما «كان العقل المسلم بخير وعافية عندما انطلق بكل ما آتاه الله سبحانه وتعالى من قدرة يمارس الأسباب، ويسخر السنين ويحدد المقاصد السليمة لأفعاله ويهتدي بمقاصد الشارع الحكيم في عمليات تنزيل الفقه على الواقع»، وذلك في القرون الأولى من التاريخ الإسلامي، وبين الواقع الحالي لعرفنا أن العقل الإسلامي يكاد يكون مشلولًا، فقد أنتج الفكر الإسلامي ما أنتجه في مجالات العلم الطبيعي والإنساني على مستوياتها وأقسامها وأبدع في ذلك «بما كان يتصف به هذا الفكر من التفوق العقلاني واتساع العقل ومدى حرية البحث والإبداع في الإشكاليات المتصلة بالقضايا الدينية ودرجة التسامح والإقبال والمناظرة واحترام شروط المناظرة بين الأئمة والمجتهدين، ورفض الخلط بين العرض العلمي للقضايا ومواقف العوام، والتقيد بما يفرض البرهان الساطع والحجج الدامغة على العقل ومتابعة البحث والاحتجاج على المستوى العلمي المحض دون الانحطاط إلى مستوى الشتم والافتراء وتحميل المناظر ما لم يفكر فيه ولم يدَّعِه ولم ينطق به قط».

جاء ناس من أصحاب النبي ﷺ فسألوه: «إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به؛ قال: وقد وجد تموه؟ قالوا: نعم؛ قال ذلك صريح الإيمان؛ ذلك محض الإيمان». ذلك هو العقل الذى دعا إليه الإسلام؛ الشك المنهجى الذى يوصل إلى الحقيقة وإلى اليقين. لقد نهج العلماء المسلمون هذا النهج فى اجتهادهم وفى علومهم وفى بنائهم لهذا الجانب العقلانى من الثقافة

العربية؛ لكن لم تعمر العقلانية الإسلامية طويلًا أمام هجمات الغنوصية والنزعة الباطنية التى لا تعتمد على العقل ولا على الحواس؛ بل تسلك سبيل العرفان والرياضة الروحية، وهى توليفة هيلينية إغريقية؛ أضيف إليها الكثير من مذاهب الفرس ودياناتهم كالمزدكية والمانوية؛ والديانة الشعبية الإسرائيلية القائمة على الإغراق فى الرموز والحقائق وأسرار الأعداد والحروف»؛ وتم البحث عن العديد من العوامل فى القرآن الكريم والسنة النبوية، كما يساعدها على تأويل الحقائق؛ وتفسيرها لتتناسب مع الفكرة المسبقة؛ وهو مازال صفة من صفات ثقافتنا التدينية إنا مازلنا نخضع لهيمنة هذا الجزء من الثقافة؛ ونعيد إنتاجه بدلًا من إعادة إنتاج العقلانية الإسلامية. وفى المجال الاجتماعى والسياسى والاقتصادى؛ نعيش حالة تغرب حقيقية تدخل فى إطار اللامعقول أيضًا؛ ففنون الغرب واهتماماته وأعياده وأزياؤه وطرق احتفالاته بالجمال أو الرياضة أو رأس السنة هو إنتاج الثقافة الغربية؛ وحين تدخل هذه الوسائل حياتنا الثقافية فإنها تدخل كأشكال من اللامعقول؛ وبخاصة أن إعلامنا العربى يسوقها على أنها معقول العالم المتحضر؛ ويهمل قضايا الشهداء والمعتقلين والعلماء والمفكرين والأدباء والفقهاء ويهمل قضايا الاحتلال وقتل المسلمين؛ ولا يختلف ذلك فى دوره ووظيفته فى تعطيل العقل المسلم عن دور الأسطورة والخرافة فى تعطيل هذا العقل.

*** العقل ووظيفته**

أنقل عن الكاتب الكبير الدكتور محمود حمدي زقزوق نقاشه عن دور العقل فى نظر الإسلام من كتابه المهم «تمهيد للفلسفة»: «إن الإنسان لم يبلغ كل هذا التكريم الذى سما به فوق كل الكائنات إلابالعقل الذى أخصه الله به وميزه على سائر المخلوقات؛ وقد نوه الإسلام بالعقل التعويل عليه فى أمور العقيدة والمسئولية والتكليف؛ ولاتأتى الإشارة إلى العقل فى القرآن الكريم (كما سبق أن أوضحت) إلا فى مقام التعظيم والتنبيه إلى وجوب العمل به والرجوع إليه، وذلك ما يؤخذ من كل الآيات القرآنية التى وردت الإشارة فيها إلى العقل. ولم يكن من قبل المصادفة أن تكون الإشارة إلى العقل فى القرآن فى صيغ عديدة؛ مختارة بلفظ القلب أو الفؤاد؛ وتارة ثانية فى صيغة أفعال بلفظ المفرد أو بلفظ الجمع كما سبق أن ذكرت؛ والتى أراد الله للعقل الإنسانى أن يمارسها فى هذا الوجود، والإسلام عندما يخاطب العقل فإنه يخاطبه بكل ملكاته وخصائصه.. فهو يخاطب العقل الذى يقسم الضمير ويدرك الحقائق ويميز الأمور ويوازن بين الأضرار، ويتأمل ويعتبر ويتعظ ويتدبر ويحسن التدبر والرؤية. وقد وعى رجال الفكر الإسلامى القيمة الكبرى التى يسبغها الإسلام على العقل، فقال عنه حجة الإسلام الغزالى

(٤٥٠ ـ ٥٠٥هـ) إن العقل «أنموذج من نور الله»، وقال عنه الجاحظ: (توفى عام ٢٥٥هـ): إنه وكيل الله عند الإنسان. وإذا كانت وظيفة العقل على هذا النحو فإن محاولة تعطيله عن أداء هذه الوظيفة يعد تعطيلًا للحكمة التى أرادها الله من خلق العقل؛ مثلما يعطل الإنسان حاسة من الحواس التى أنعم بها عليه عن أداء وظيفتها التى خلقت من أجلها. وهؤلاء الذين يفعلون ذلك يصفهم القرآن بأنهم أحط درجة من الحيوان حيث يقول: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: ١٧٩]. ومن هذا المنطلق يعتبر الإسلام عدم استخدام العقل خطيئة من الخطايا وذنبًا من الذنوب. يقول القرآن الكريم فى وصف الكفار يوم القيامة ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ﴾ [الملك: ١٠ ـ ١١].

ولهذا كانت دعوة القرآن للإنسان لاستخدام ملكاته الفكرية دعوة صريحة لا تقبل التأويل، وهكذا يجعل الإسلام التفكير واجبًا مقررًا وفريضة إسلامية، ومن هنا قرر ابن رشد (ت ٥٩٥هـ)أن الشرع قد أوجب النظر بالعقل في الموجودات واعتبارها، وذلك آخذًا من آيات القرآن العديدة في هذا الشأن، وإذا كانت ممارسة الوظائف العقلية تعد واجبًا دينيًا في الإسلام فإنها من ناحية أخرى مسئولية صحيحة لا يستطيع الإنسان الفكاك منها؛ وسيحاسب على مدى حسن أو إساءة استخدامه لها مثلما يسأل عن استخدامه لباقى وسائل الإدراك الحسية. وفى ذلك يقول القرآن: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

*** تمهيد الطريق أمام العقل**

ومن منطلق حرص الإسلام على ممارسة العقل لوظائفه التى أرادها الله، كان حرص الإسلام شديدًا على إزالة كافة العوائق التى تعوق العقل عن ممارسة نشاطه؛ ولهذا طالب الإسلام بتحطيم هذه العوائق ليشق العقل طريقه للفهم الصحيح والتفكير السليم، ويتجلى لنا ذلك واضحًا من النقاط التالية:

(أ) رفض التبعية الفكرية والتقليد الأعمى. فالإسلام عندما أمرنا بالنظر واستعمال العقل فيما بين أيدينا من ظواهر الكون نهانا فى الوقت نفسه عن التقليد الذى فيه تعطيل للعقل عن آداء دوره فى الوجود، فالتقليد ضلال يعذرفيه الحيوان؛ ولا يصح بحال من الأحوال من الإنسان القادر على التفكير والتمييز؛ ولهذا عاب القرآن على المشركين تقليدهم الأعمى لأعرافهم وتقاليدهم وأسلافهم مستنكرًا مثل هذا التقليد. وفى ذلك يحكى عنهم قولهم: ﴿حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [المائدة: ١٠٤]. ويتساءل فى استنكار: ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا

وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾[المائدة: ١٠٤]. وقد حذر النبى (ﷺ) أيضًا من التقليد الأعمى قائلًا: (لاتكونوا إمعة) (رواه الترمذى)؛ بمعنى لا تكونوا مقلدين للآخرين تقليدا أعمى.

(ب) القضاء على الدجل والشعوذة والاعتقاد فى الخرفات والأوهام وإبطال الكهانة، كما سبق أن ذكرت سابقًا؛ فلا كهانة فى الإسلام وليس هناك مخلوق يتحكم باسم الدين فى رقاب العباد؛ فلا ضرر ولا نفع إلا بإرادة الله الذى يقول لنا فى القرآن الكريم إنه أقرب إلينا من حبل الوريد؛ وأنه قريب يجيب دعوة من يدعوه. والرسول (ﷺ) يقول: (إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله) (رواه الترمذى والإمام أحمد). وعقائد الإسلام واضحة ليس فيها ما يتعارض مع مقررات العقل السليم. وقد وقف الرسول (ﷺ) بحزم فى وجه الخرافات والأوهام. وعندما مات ابنه إبراهيم تصادف أن حدث كسوف الشمس فى ذلك اليوم فقال البعض: إن كسوف الشمس هو مشاركة فى الحزن على موت إبراهيم. وقد واجه النبى (ﷺ) ذلك بحسم قاطع قائلًا: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياة أحد» (رواه البخارى ومسلم).

(ج) تركيز الإسلام على المسئولية الفردية؛ فكل فرد مسئول عن أعماله مسئولية تامة؛ وليس هناك خطيئة موروثة؛ وآيات القرآن الكريم فى هذا الشأن واضحة صريحة. وهذه المسئولية الفردية لا تقوم إلا على أساس حرية الفرد واطمئنانه إلى حقوقه فى الأمن على نفسه وعقله وماله. وقد جعل الإسلام الأمن على العقل من بين المقاصد الضرورية الأساسية التى قصدت إليها الشريعة الإسلامية لقيام مصالح الدين والدنيا، وهذه المقاصد الضرورية هى حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال.

(د) حرر الإسلام الفرد المؤمن بعقيدة التوحيد من الخوف المهيمن من السلطة الدنيوية ورفعه إلى العزة التى يقول القرآن الكريم فيها: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المنافقون: ٨] ويقول الرسول (ﷺ): (اطلبوا الحوائج بعزة الأنفس). (رواه تمام وابن عساكر) كما قرر الإسلام ألا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق؛ وأن المؤمن لا يخشى فى الحق لومة لائم. وهكذا كفل الإسلام للإنسان المناخ الحقيقى الذى يستطيع فيه أن يفكر ويتأمل ويعى ويفهم؛ وبهذا أطلق الإسلام سلطان العقل فى كل ما كان يقيده؛ وخلصه من كل تقليد كان يستعبده؛ وبهذا تم للإنسان بمقتضى دينه أمران عظيمان طالما حرم منهما، وهما استقلال الإرادة، واستقلال الرأى والفكر، وقد كان لهذا الموقف الأساسى للإسلام من العقل أثره العظيم فى صياغة الحضارة الإسلامية والعقلية الإسلامية.

* تحرير العقل من ثقافة النقل

النقل هو الأخذ عن السابقين؛ والتعويل على نصوصهم؛ والاستناد بوجه عام إلى النصوص القديمة؛ السابقة فى الوجود والرتبة؛ والنظر إلى هذه النصوص مقدسة أو بشرية؛ بوصفها مبتدى العلم ومنتهاه؛ مصدر المعرفة وإطارها؛ منبع الحقيقة وأفقها. وقد أكد الكاتب الكبير الدكتور جابر عصفور فى كتابه القيم: «نقد ثقافة التخلف» أنه يلزم عن ذلك؛ وضع هذه النصوص القديمة؛ السابقة فى الوجود والرتبة؛ موضع التسليم المطلق والتصديق الدائم؛ والأخذ عنها مع اعتقاد الحقيقة فى ظاهرها من غير مساءلة أو مناقشة أو مجادلة؛ فالنقل هو الوجه الآخر من «التقليد» الذى هو احتذاء لما سبق وائتمار به؛ ومحاكاة له؛ وإقرار عافيه من غير نظر أو تأويل فى دليل. ويؤدى التأويل الاعتقادى دوره فى مستويات هذا اللزوم؛ بما ينتقل بعدوى القداسة من النصوص الدينية إلى النصوص البشرية؛ خصوصا تلك القريبة فى زمنها من زمن النصوص النبوية؛ أو المعاصرة لها؛ أقصد إلى نصوص السلف الصالح من الصحابة والتابعين؛ أولئك الذين تتحول نصوصهم إلى منارات هدى للخلف؛ أو يرى فيها الخلف إطارًا مرجعيًا مطلقًا ينقاس عليه كل فعل أو حدث من أفعال البشر أو أحداث حياتهم المتغيرة.

ويقول أيضًا الدكتور عصفور: إن عدوى القداسة هذه لا تتوقف عند هذا الحد فحسب؛ بل تمضى إلى مالا نهاية فى ممارسة دورها؛ فتنقل إجلال السلف الصالح من الصحابة والتابعين إلى كل سلف بالقياس إلى كل خلف؛ وذلك على نحو يغدو معه اللاحق على الإطلاق فى موقف الناقل عن السابق بالإطلاق نفسه؛ تأكيدًا لمعنى الاتباع وإكمالًا لدلالة الإجلال الناجمة عن تحويل الدين إلي ماليس بديني ويترتب علي ذلك أن يغدو النقل عن النص هو الأصل الموثوق به في الإدراك والفهم، العقل والسلوك، القبول أو الرفض، وذلك علي نحو يجعل من «النص «المعيار المطلق في الحكم بإيجاب القيمة، ومن ثم المعيار الذي يحدد ما يدخل في دوائر الحق والخير والجمال، وما يلزمها من صفات النافع والمسموح به أو المندوب إليه، مقابل الباطل والضار والمكروه والمنهي عنه.

وينتج عن هذه النصية كما يقول الكاتب ظاهرة إغلاق باب الاجتهاد (العقل)، أو ما أسميه أنا بتعطيل العقل، خصوصًا بعد أن يرسخ الاعتقاد بأن أحاديث السلف وآثارهم وكتاباتهم تكفي لمواجهة أي مشكل طارئ، أيًا كان نوع هذا المشكل، أو أيًا كان مجاله، ومن ثم التسليم بأنه لاقيمة لأي جديد أو متغير إلا إذا عثر الخلف في المنقول عن ميراث السلف على نص من النصوص التي تبرر هذا الجديد، أو على خبر من الأخبار التي تقصد التغيير.

ولو لم يجد الخلف في المنقول من نصوص السلف ما يبرر الجديد الطارئ، أو يعضد المتغير الحادث، انتهى الجديد والمتغير إلى هوة النبذ، وظلا بمثابة «بدعة الضلالة» التي تقضي إلى االنار لإقترانها بالمعصية. وبديهي أن تغدو المعصية كالبدعة في لوازم هذا السياق، سواء من حيث اقترانها بما يفسد الحياة الدنيا، أو ما يستحق العقاب في الحياة الآخرة، وذلك بوصفها فعلًا محدثًا (أو حدثًا شاذًا) لا يستند إلى نقل، ولا ينقاس على نص من النصوص المنقولة عن السلف الصالح.

وكما أنه لا اجتهاد مع النص، في ميراث التقليد، فإنه لا اجتهاد مع نقل، ولا إعمال للعقل إلا في حدود المنقول الذي يحدد أفق كل شيء ومداره المغلق بمدي نصيته.

هكذا، اقترن مفهوم: «النقل» في الثقافة الاتباعية بالتقليد، وتلازم معه تلازم السبب والنتيجة

وذلك بالمعنى الذي أدى بالطرفين إلى حال من الاتحاد، كما لو كان النقل تقليدًا بالأخذ عن نص بعينه، وكما لو كان التقليد نقلا عن نص سابق، وأخذ به، ومحاكاة له.

وترتب على ذلك تجاوب دلالات: «النقل» في الدلالة على «التقليد» أو الاتباع، خصوصًا في المجال الدلالي الذي يعطي الأولوية للنص في المعرفة الإنسانية، ويؤخر العقل بوصفة صاحب الدور اللاحق علي النص، وفي الوقت نفسة، يجعل التقليد مقدمًا على الاجتهاد في المجال ذاته، خصوصًا في تلازم التقليد مع النقل من حيث تناقص المفاهيم المصاحبة لهما مع مفاهيم «النظر «أو تأمل الدليل «أو «المساءلة» أو «القياس».

ولذلك اختزلت طوائف من الدارسين القدامي والمحدثين مسميات «أهل السنة والجماعة» و«أصحاب الحديث» ودعاة «السلفية» أو «الاتباع» أو «التقليد» في مسمى واحد هو «أهل النقل» وذلك مقابل «أهل العقل» من طوائف المتكلمين والفلاسفة الذين جعلوا للعقل الأولوية المطلقة، سواء في مجالات المعرفة الإنسانية، أو قضايا العقيدة الدينية، أو مبادئ السلوك الأخلاقي، أو حتى الإبداع الأدبي والفني.

وإذا كان الفارق بين الفلاسفة والمتكلمين، من حيث تعارضهم مع أهل النقل، يرجع إلى أن نظر الفيلسوف هو نظر في الوجود من حيث إنه يدل على الموجود فيما يقول ابن خلدون في «مقدمته» فإن هذا الفارق يضيق إلى حد كبير في الدائرة العقلانية التي لا تفارق الاعتماد منه في البراهين على الاستدلال والتأويل، والانطلاق بالعقل إلى مداه اللامحدود الذي يجعل منة الإيمان الديني نفسه قضية عقل قبل أن تكون قضية نص؛ ولذلك ذهب أبو الهذيل العلَّاف المعتزلي

إلى أن الإنسان مكلف بالأشياء التي يستطيع العقل التمييز فيها بين الخير والشر ولم تصل إليه أوامر الشرع، أو يطالع نصوصه، وإن قصر في التمييز بين الخير والشر استوجب العقوبة لأنه لم يعمل عقلة، ولم يدرك ذاتيًا بهذا العقل وجوه الصدق والعدل، وأن علية الإعراض عن الكذب والظلم ولو لم يصله نص، أو يعتمد على نقل، لأن العقل يستطيع أن يدرك حسن الأشياء وقبحها لما فيها من صفات ذاتية تجعلها حسنة وقبيحة.

ومن المنطلق نفسه، ذهب ابن جرير الطبرى صاحب التفسير الشهير (كي يؤكد ابن حزم في «الفصل») إلي أن «من بلغ الاحتلام أو الإشعار من الرجال، أو بلغ المحيض من النساء، ولم يعرف الله عزوجل بجميع أسمائه وصفاته من طريق الاستدلال فهو كافر، وكان ذلك في منحنى غير بعيد عن المنحني الرمزي لقصة «حي بن يقظان «التي كتبها الفيلسوف العربي الكبير ابن طفيل ليؤكد ما سبقه إليه غيره من العقلانيين الذين رأوا أن العقل جوهر قائم بنفسه، قادر بذاته على الوصول إلى الحقيقة المطلقة للكون، من غير حاجة إلى نقل أو نص؛ ولذلك كان العقل حجة الله على خلقة، وأداة خلقة في إدراكه سبحانه وتعالي، حتمًا من قبل الرسالات والنبوات التي رآها العقلانيون لطفًا بالمخلوقين المكلفين، دين أو معرفة أو سلوكًا بحكم ما انطوى عليه من عقل.

وكان «أهل السنة والجماعة» يرفضون هذا المذهب في العقل، ويرونه بعيدًا عن الدين، ويذكرون قدرة العقل الذاتية على الوصول إلى الحقيقة، دنيا أو معرفة أو سلوكًا، بعيدًا عن النص أو خارج دائرة النقل، في العقيدة الدينية، لا تتحدد إلا نصًا، والمعرفة لا يتوصل إليها إلا اتباعا، والسلوك الأخلاقي لا يتأسس إلا تقليدًا، والنقل طريق النجاة في كل المجالات، وأصل الهداية التي يضيعها الغلو في تقدير قيمة العقل، ويعني ذلك أن العقل ليس أصلًا في إثبات الشرع كما يذهب العقلانيون، وإنما هو أصل من أصول علمنا، بالشرع، والعقل تابع للشرع من حيث هو الأصل؛ ولذلك فإن مرتبته ثانوية بالقياس إلى النص الذي يبلغ تعاليم الشرع، ولا معنى لهذه المرتبة بعيدًا عن النقل، فلا قيمة للعقل نفسه إلا من حيث صلته بتأكيد مقاصد النص، وما ذلك إلا لأن عمل العقل كله لا حق على الوجود النقلي للنص ومأمور بتصديقه والعمل بمقتضاه.

وكان الصراع بين «العقل» و«النقل»، في مستويات التقابل بين القطبين المتضادين، صراعًا بلغ أقصاه في الصدام بين المعتزلة والحنابلة على وجه الخصوص، ابتداء من عصر الخليفة العباسي المأمون (١٩٨ ـ ٢١٨هـ) وانتهاء ببداية خلافة المتوكل (٢٣٢هـ) الذي نصر أصحاب

الحديث الذين مثّلهم الإمام أحمد بن حنبل (١٦٤ ـ ٢٤١هـ) وأتباعه على المعتزلة، ونهى الناس عن الكلام والجدل، ومع ذلك، ظل الصراع بين الاتجاهات العقلانية والاتجاهات النقلية باقيًا على امتداد قرون الحضارة الإسلامية، ينتصر أهل العقل في فترات الاستقلال والازدهار؛ وينتصر أهل النقل فى فترات الهزائم والانكسارات؛ فيأخذون بثأرهم من العقلانيين الذين شنعوا عليهم ويشيعون شعار «من تمنطق فقد تزندق» لقمع العقل وأهله؛ ولا يتردد بعضهم فى حرق كتب العقلانيين المتهمة وأصحابها بالفكر. وقد كان انتصار أهل النقل النهائى انتصارًا لثقافة الاتباع التى لاتزال غالبة على الثقافة العربية إلى اليوم؛ وذلك على الرغم من إعادة فتح أبواب الاجتهاد؛ وحيوية بعض التيارات العقلانية التى لا تزال فى إطار الهامش المقموع فى الثقافة العربية المعاصرة، والأمثلة على ذلك كثيرة، وبعد هذه الرحلة الممتعة مع العقل والنقل فى رحاب الفكر والعقل العربى والإسلامى؛ نحط رحالنا فى بعض السطور كخاتمة لهذا الفصل المهم لتلخص معانى تحرير العقل العربى الفكرية؛ ووضع بعض النقاط المهمة اللازمة لأى مشروع تنويرى لتحرير هذا العقل من معوقاته للانطلاق نحو الاجتهاد والرقى والحضارة. إن العقل كما ورد فى لسان العرب هو الحجر والنهى؛ ضد الحمق؛ والعاقل هو الجامع لأمره ورأيه؛ مأخوذ من عقلت البعير إذا جمعت قوائمه كما يقول الكاتب محمد المعمار فى إحدى مقالاته المهمة؛ والعاقل من يحبس نفسه ويردها عن هواها؛ واعتقل لسانه إذا حبس ومنع الكلام؛ وسمى العقل عقلًا لأنه يعقل صاحبه عن التورط فى المهالك؛ وقد نتمكن من تعريف العقل اصطلاحًا؛ بأنه الملكة التى يحكم المرء بواسطتها على الأمور على صعيدى الموضوع والذات؛ عن طريق إدراك العلاقات والروابط بين الأشياء وتفهم الأسباب والنتائج؛ وبعبارة مختصرة هو الأداة الفكرية التى يستخدمها المرء للحكم على الأمور أو التمييز بينها؛ وتتكون هذه (الأداة الفكرية) منذ أن يولد الإنسان تدريجيًّا؛ وتظل تنمو معه أو تتضاءل حتى المماة؛ وتتشكل من تفاعل عنصرين أساسيين هما: البيئة والوراثة.

أو التكوين الجيني والمحصول التربوي، ويدخل في الأخير كل ما يتلقاه الإنسان من مؤثرات خارجية، بما فيها تربيته البيئية والمدرسية والشارع، وعلاقاته الاجتماعية، والمؤثرات المجتمعية، أن التفاعل المركب والمعقد بين هذين العنصرين المنفردين يتمخض عن (عقل الإنسان) أو عن (الإنسان ذاته) في تفكيره وسلوكه...

لذلك يمكن أن يقال إن الإنسان (يفكر بعقله) أي يتخذ قراراته التي تتجسم في تصرفاته، من خلال تفكيره بهذه (الأداة) بيد أن هناك نمطًا آخر من التفكير (لا بالعقل) كما هو معروف،

بل (في العقل)، أي بدل أن يفكر الإنسان في الأشياء أو الأعيان، أو بالأحرى (الموضوع)، بتلك الأداة (العقل) فإنه يتفكر في تلك الأداة (العقل)، التي تصبح في هذه الحالة هى (الموضوع)، أو يتفكر بالذات كموضوع بدل أن يتفكر في الموضوع خارج الذات، فالنمط الأول من التفكير أي التفكير بالعقل في الموضوع هو تفكير (بالعقل المنفعل) على الأغلب الثاني، أي التفكير بالعقل في العقل، فهو تفكير (بالعقل الفاعل) بدرجات ومستويات مختلفة كما يوضح ذلك الدكتور محمد عابد الجابري في موسوعته «نقد العقل العربي» ويختلط أحيانا الفكر بالعقل إلى الحد الذي اعتبره الدكتور الجابري مرادفًا له عندما يستخدم (كأداة)، فهو يشير إلى أنه كان بإمكانه استخدام لفظ (فكر) بدل (عقل) في موسوعته الشهيرة التي سبق أن ذكرتها، لولا هذه الكلمة «تعني الاستعمال الشائع اليوم مضمون هذا الفكر ومحتواه، أي جملة الآراء والأفكار التي يعبر بها أو من خلالها أي شعب، عن اهتمامه ومشاغله، وأيضًا عن مثله الأخلاقية ومعتقداته المذهبية وطموحاته السياسية والاجتماعية؛ وهكذا فإن الفكر يعنى كل ما أنتجه أى شعب من أدب وعلم وفلسفة؛ أى من ثقافة؛ لذلك يقال (الفكر العربى) أى حصيلة ذلك الفكر؛ ولكن مع ذلك فإن هناك جانبًا آخر من الفكر هو الجانب الذى يستخدم (كأداة) لا كمحتوى أو ناتج؛ ويمكن أن يختلط بالعقل؛ لذلك يقول د. الجابرى «إن ما يجب أن نهتم فى منهج التجديد الفكرى العربى ليس الأفكار ذاتها؛ بل (الأداة) المنتجة لهذه الأفكار أى العقل. «إن العقل كما قلنا يتكون من تفاعل عنصرين أساسيين؛ هما الوراثة والبيئة؛ فنحلل عنصر البيئة الذى يتكون من جميع ما يتلقاه الكائن البشرى من انطباعات ومؤثرات خارجية؛ ابتداء من لحظة ميلاده حتى مماته؛ وتدخل فيها التربية البيئية والمدرسية والشارع وعلاقاته الاجتماعيه.

ولاشك بأن بيئة الإنسان العربى تختلف عن بيئة الإنسان الصينى أو الأوروبى؛ كما تختلف عن أى بيئة عن بقية البيئات؛ وبالتالى فإن عقول هذه المجموعات المختلفة من البشر ينبغى أن تكون مختلفة بعض الاختلاف؛ وهذا لا يعنى أننا نقضى بذلك على المبدأ القائل بتجانس العقل البشرى؛ أى أنه لا يختلف من حيث إنه عقل بشرى؛ ويتميز عن عقل الحيوان؛ بل نعترف بهذا التجانس العام؛ ولكن ما إن ندخل فى الخاص؛ حتى تبدو الفروقات؛ بل تتجلى تلك الفروقات بين طباع البشر أوعقولهم باختلاف البيئات والمجتمعات الكبيرة والصغيرة. يقول الجابرى «بما أن الحياة الاجتماعية ليست واحدة ولا على نمط واحد؛ فمن المنتظر أن تتعدد أنواع القواعد العقلية؛ وأنواع المنطق؛ بتعدد وتباين أنماط الحياة الاجتماعية؛من هنا كان للشعوب المسماة بدائية منطقها أو عقلها؛ وكان للشعوب الزراعية منطقها؛ وكان للشعوب التجارية

الصناعية منطقها؛ ومن هنا أيضًا ولنفس السبب، كان لكل مرحلة تاريخية منطقها؛ وهكذا يمكن القول بأن هناك عقلًا عربيًا متميزًا؛ لأن المجتمع العربى مر بأدوار تختلف عن أى مجتمع آخر؛ تراكمت خلالها الأحداث والوقائع والقيم؛ فأصبحت جزءًا من الثقافة التى تشكل العقل العربى؛ وبهذا يقول الكاتب «جورج طرابيش» (إن العقل البشرى عندنا هو ثمرة تراكم تاريخى؛ ومثله مثل (الرأسمال) عند «ماركس»؛ فإنه لا يمكن فهمه فى أطوار تطوره اللاحقة بدون أن تؤخذ فى الاعتبار سيرورة تراكمه البدائى). إن هناك علاقة جدلية متشابكة بين عقل المجتمع وعقل الفرد؛ من حيث تأثير الأول فى الثانى على نحو متواصل ومكثف إلى الحد الذى يظهر هذا التأثير فى تراكم الأفكار فى عقل الفرد منذ ميلاده حتى مماته نتيجة لوجوده المستمر فى هذا المجتمع؛ وإلى الحد الذى يصبح فيه الفرد صورة مصغرة للعقل المجتمعى؛ كما قد يؤثر العقل الفردى فى العقل المجتمعى أحيانًا؛ ولكن بدرجة أقل وفى حالات محدودة؛ علمًا بأن عقل الفرد يخضع للعقل المجتمعى لا شعوريًا؛ وهذا الأمر لا ينطبق على الفرد العربى والمجتمع العربى وحسب؛ بل يعم جميع المجتمعات؛ وهكذا فإن العقل البشرى محكوم عليه بالسجن المجتمعى المؤبد؛ مع اختلاف فى خصائص تلك السجون ومدى قساوتها أو رحابتها؛ ثم مدى صرامة العقوبة التى تقع على من يحاول الإخلال بقواعد السلوك فى هذا السجن على سبيل المثال لا الحصر إلى اسم من أسماء بعض المفكرين العرب الذين انتهكوا قواعد السلوك داخل السجن العربى الرحب مثل الدكتور طه حسين مؤلف كتاب (فى الشعر الجاهلى)؛ الشيخ مصطفى عبد الرازق، جمال الدين الأفغانى؛ الشيخ محمد عبده، ابن رشد، ابن سينا؛ أبو بكر الرازى؛ وحديثًا الدكتور نصر حامد أبوزيد وغيرهم الكثير...

وهكذا فإن العقل العربي، وبالتالي الإنسان العربي العادي، سجين في سجون منيعة متعددة الأصناف والأسوار، وما إن يظهر بعض من ذوي الأفكار النيرة لتحرير الناس من سجونهم المركبة حتى يتعاون على قمعه ورفضه وإلغائه كل من السلطة والمجتمع بأفراده السجناء أنفسهم الذين ألغوا سجنهم الدائم، بل إن معظمهم لا يعني سجنه، أي لا يدري أنه سجين أصلًا، لأنه ولد وعاش في هذا السجن الكبير، وسيموت فيه، فمثلًا العقل العربي سجين قهره الاجتماعي الذي يفرض عليه أن يفكر ويتصرف ويسلك طبقًا لمستلزمات ومحددات ومسلمات العقل المجتمعى السائد، والمفارقة أن الإنسان العربي يخضع لهذه المسلمات القاهرة دون وعي، بل تصبح جزءًا من عقله الواعي يدافع عنها باعتبارها تمثل قيمه الخاصة.

لقد أصيب الإنسان العربي بصدمة عنيفة منذ حملة نابليون على مصر في عام ١٧٩٨م، وتكرار الهزائم أمام الغرب المتقدم، ثم تفاقمت هذه الصدمة في واقعية الهزيمة الكبرى في

حرب ١٩٦٧م وازدادت تفاقمًا وتأزمًا بعد (عواصف الصحراء)، أصيب العقل العربي بتلك الصدمة العنيفة بسبب فشله في مواجهة الآخر، وقد يبرر الإنسان العربي هزائمه أمام الغرب لأنه يواجه دولًا كبرى، فكيف يبرر هزائمه المتكررة أمام الكيان الصهيوني أو الدويلة أو العصابات الصهيونية كما يقال عنها في نشاطاتنا الكلامية اليومية.

إن من أقوال جمال الدين الأفغاني ـ رحمه الله ـ المشهورة إن (العربي يعجب بماضيه وأسلافه وهو في أشد الغفلة عن حاضره ومستقبله)، ونحن لا نزال نعيش على أمجادنا السابقة، إن ارتباطنا بالذي نطلق علية تاريخنا المجيد أو تراثنا الذهبي، أو سلفنا الصالح، ليس له مايضارعه أو يعادله لدى أية أمة من أمم الأرض، إن الإلحاح في التنوية بماضينا المجيد وفضله علي العالم عامة، وعلى الغرب خاصة، قد يعتبر ظاهرة مرضية إن لم يقترن بالعمل الجاد والإبداع الفكري والحضاري، بما فيه العلمي والتكنولوجي علي وجه الخصوص، لمواكبته الحضارة الحديثة القائمة على هذه المعطيات. إن التنويه المستمر والدائم والمخل با لسلف واحترام التراث يقتضى عمل كل شيء إعادة دراسته وتحليله بعمق؛ انطلاقًا من أسس معرفيه مما يصعب أو يتعذر لحقيقة معرفتنا بهذا (العقل العربى)؛ وليس بوسعنا أن نتذكر أمة لها مثل حضارتنا العربية؛ أضر بها ماضيها إلى الحد الذى أضر بالأمة العربية؛ فنحن ننشأ منذ نعومة أظفارنا على تمجيد وتعظيم ماضينا وأسلافنا؛ فى أسرتنا أولًا؛ ثم فى مدرستنا؛ لاريب أن المقصود بكل ذلك تحقيق أهداف نبيلة؛ منها حفز الهمم وإيقاظ العقول لاستعادة مجد الأجداد؛ وتحقيق التقدم؛ بيد أن هذا التأكيد الذى جرى على هذا النحو وبدون أن يقترن بالنقد العلمى الموضوعى؛ قد أدى إلى عكس المطلوب تمامًا؛ فقد أسفر عن إمعاننا فى التلذذ بأحلام الماضى وأمجاده؛ غافلين عن واقعنا الذى يزداد تخلف؛ ويتساءل الدكتور الجابرى «ماذا تفيد فى الثقافة العربية منذ الجاهلية إلى اليوم..؟؛ ذلك أننا نشعر جميعًا [يعدد الجابرى أسماء كثيرة من الأجداد من عنترة بن شداد إلى ابن خلدون] نشعر بهؤلاء جميعًا معنا هنا؛ أو يقفون هناك أمامنا على خشبة مسرح واحد؛ مسرح الثقافة العربية الذى لم يسدل الستار فيه بعد ولو مرة واحدة». ليس من مصلحتنا أن نسدل الستار على هذا المسرح العظيم لذلك التاريخ الحافل بكل مافيه من صفحات بيضاء وسوداء؛ وبكل مافيه من مجد ومكسب وانتصارات؛ بل يجب أن نعيد كتابة هذه المسرحية؛ ونعيد إخراجها بعقول ناضجة؛ بعقول العصر الذى نعيشه؛ بعقول نقدية صارمة فى موضوعيتها وعلميتها؛ وألا نظل نكررعرض هذه المسرحية، كما كتبت وأخرجت فى عصرها قبل أكثر من ألف عام.